من وحى المأساة الفلسطينية :

نكبة العرب فى الأندلس

للأستاذ محمود عزت عرفة

انقضى أربعمائة وأربع وخمسين سنة على حادث سقوط حصن غرناطة آخر معاقل العرب بالأندلس فى أيدى الأسبانيين ، وقد تم ذلك سنة ١٤٩٢ م ؛ فكان خليقاً بنا ومأساة فلسطين تُمثل أن نعالج بإيجاز أسباب تلك المأساة الفاجعة ، ونتلمس عللها بين حوادث التاريخ ، ونقف عندها وقفة نخرج منها بعبر وعظات نافعات ، هى الغاية العليا من كل دراسة والمقصد الأسمى من كل تحقيق وتمحيص .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن جحافل العرب حملت معها من أول يوم وطئت فيه أرض الأندلس جرثومة هذا الداء الذى أنهكها واستصفى قواها ، وأدال دولتها بعد ثمانية قرون من الزمان . فقد اجتاح موسى بن نصير أرض الأندلس عام ٧١١ م حتى بلغ أطرافها الشمالية ؛ وعهد إلى قائده طارق بفتح مدائن (جيليقية) فى الشمال الغربى ، بينما اجتاز هو سدّ جبال البرانس الشامخ وانحدر إلى سهول فرنسا ، معتزماً أن يدلف إلى القسطنطينية من طريق الغرب ! !

حلمٌ كان حرياً أن يتحقق لو لم يستيقظ موسى من نشوته على دعوة الوليد بن عبد الملك الذى أهاب به أن يكف عن إيغاله فى الغزو وينكفىء بعسكره معافى إلى أسبانيا ... وما كان له إلا أن يسمع فيطيع . على أنه انصرف وقتذاك إلى المسيحيين المتحصنين بأقصى الشمال الغربى من شبه الجزيرة تحت إمرة زعيمهم (بلايو) ؛ وكان يسبيل أن يقلم أظفارهم ويقى البلاد شر مكايدهم وفتنهم التى ذرّ قرنُها بعد حين ؛ لولا أن هتف به داعى الخليفة حرة أخرى أن يؤوب إليه وطارقا ؛ فتركا زمام الأمور فى يد عبد العزيز بن موسى وسارا إلى المشرق .

وقد نكب موسى بعد قليل على يد سليمان بن عبد الملك ، واغتيل ابنه عبد العزيز فى شوارع إشبيلية بتدبير منه ، ولم يكن مصير طارق بأفضل من هذا . فقتلت الأندلس بموت أولئك كل من كان يفكر فى إتمام الفتح على خير وجوهه ، وأتيحت لفلول المنهزمين فرصة الحياة بعد أن أشفوا على الدمار ، وتهيأ لهم أن يجمعوا كيدهم وينتظموا صفوفاً حتى أصبح موطنهم جيليقية مصدر القلاقل ومهب الرياح العاتية التى اجتاحت ملك العرب فيما بعد ، ودكت بنيانهم من القواعد ...

ولم يكن ولاة بنى أمية فى ضعفهم ليزيدوا الحالة إلا سوءا ؛ فقد احتدمت الخصومة على عهدهم بين العرب والبربر ، وبين العرب وأنفسهم من يمانيين ومضريين ؛ وكان فى تسلّم عبد الرحمن الداخل زمام الحكم انتصار لفريق من هؤلاء دون فريق[1] . وإذا كانت سطوة الحكم الأموى فى الأندلس قد قضت على عوامل هذا الخذلان والتفرق ، فإن ما وقر بسببه فى النفوس من حزازات كان كفيلا بتهديد وحدة العرب وتآلفهم ، مهيباً بكثير منهم إلى الثورات الجامحة والفتن المبيرة ، مما ظهرت عواقبه الوخيمة فى أخريات أيامهم .

***

بسط العرب ظلال السلام على الجزيرة ، ورفعوا لواء العدل والمساواة فى أرجائها ؛ فارتضى سيرتهم كل من عاشرهم من الأسبانيين واتصلت أسبابه بأسبابهم . ولكن بقيت هذه الأطراف المستعصية تجيش قلوب أهلها بكراهيتهم والحقد عليهم وإعمال المكيدة لهم ، حتى بين جدران قصورهم ، وتحت قباب معابدهم !

فقد ذكروا أنه وُجد على جانب أحد أعمدة المسجد الجامع بقرطبة صورة تمثل المسيح مصلوباً ، كان قد رسمها أحد المسيحيين ممن نافقوا بإظهار الإسلام وعاشوا بين ظهرانى العرب يكيدون لهم ويمالئون عليهم . ولما دخل الأسبانيون قرطبة وكشفوا عن موضع هذه الصورة رسموا أمامها على الجدار المقابل لها وجهاً يمثل هذا المسيحى الذى خطها — فيما زعموا — بأظافر يده[2].

(١) انضم إلى عبد الرحمن الداخل أنصار بنى أمية من أهل الشام ، وجند كثير من اليمانيين والبربر ممن كانوا يسخطون على الوالى العباسى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى انحازت إليه قبائل المضريين عامة . وبانهزام هذا الأخير اجتمعت السلطة إلى عبد الرحمن الذى أسس ملك بنى أمية بالأندلس عام ٧٥٥ م .

(٢) انظر رحلة الأندلس للمرحوم محمد لبيب البتنونى ص ٥١

فكم يا ترى عدد من كانوا يعيشون بين المسلمين من أمثال هؤلاء ؟ وما مبلغ بلائهم فى تقريب هذه النهاية الفاجعة التى آل إليها أمر العرب بالأندلس ؟ ...

لسنا نستطيع أن ننكر العلاقة بين هذه الحالة وبين سياسة التسامح الدينى التى جرى عليها المسلمون فى هذه البلاد بين قوم عشيت عيونهم عن أضواء حضارتهم ، واسودت قلوبهم بظلام الحفيظة والاضطغان عليهم ...

ونعنى بهؤلاء القوم أولئك الذين اعتصبوا ضد العرب لغير ما سبب ظاهر ؛ دون من تبطنوهم من المسيحيين وقاسموهم العيش فى دعة وسلام ، فارتشفوا رحيق آدابهم وجنوا ثمار علمهم وحضارتهم ؛ وتبوأوا — إلى جانبهم — سنى المناصب ورفيع الدرجات مما هيأتهم له مواهبهم وعبقريتهم .

* * *

أساء قوم من المسلمين فهم هذا التسامح الدينى الذى أمروا به وانتدبوا إليه ، وأعمتهم بوارق الحياة ورغائب العيش عن تعرف حدوده ، وتبين أغراضه ومراميه ؛ وشوهت شهوات الدنيا لديهم من صورته الجميلة المشرقة ؛ ونكبت به ضلالات النفوس عن طريق الحق ومنهاجه المستقيم .

فلم يكن عجيباً بعد ذلك أن نرى عمًّا[1] للحكم بن هشام ينهض إلى عاصمة إكس لاشابل عاصمة شارلمان فيستجدى محالفته فى خنوع ، ويلتمس منه المعونة على إسقاط ابن أخيه القائم بالأمر ، وكان ذلك عام ٧٩٧ م أى قبل مرور قرن واحد على دخول العرب الأندلس . ولم يكن عجيباً أيضاً أن نرى المستعين حفيد الناصر (١٠٠٩ م) يرسل رسله إلى بلاط سانكو أمير قشتالة ليعينه ضد منافسه المهدى وهو من أحفاد الناصر أيضاً ؛ فيجد رسل المهدى قد سبقوه إلى طلب هذه المعونة من الأمير ... والأمير يمايل بين الرجلين ويعرضهما على مرآة مطامعه ؛ ثم ينتهى إلى رفض معونة المهدى والإقبال على نصرة المستعين ... إلى أمثلة من مثل ذلك كثيرة نحيل فيها إلى مظانها من مصادر التاريخ .

ولقد أحسن ملوك أسبانيا استغلال هذه الفرص السوانح ، فزادوا نار الفتن بين المسلمين استعاراً ، وأذاقوا بعضهم بأس بعض ؛ وراحوا يقتصون من أطراف بلادهم ويفرضون الجزية على المستضعفين منهم ، استغراقاً لثروتهم ، وغلا لأيديهم عن كل ما يمهد لهم سبيل القوة . وأخيراً أعلنوا ضد الجميع حرباً صليبية لا هوادة فيها — فى وقت كان المسلمون فيه قد فقدوا صفاتهم الأولى من التحمس وسمو المبدأ ، والتحمس للدفاع ، وشدة الرغبة فى الجهاد . فكان تخاذلهم عن صيانة ملكهم عظيما ، وتهافت ملوكهم المتنابذين على استرضاء ملوك النصارى المتربصين بهم بالغاً غايته . حتى لقد كان من مخزيات ما حدث فى أواخر القرن الحادى عشر أن اكتسح الملك الفونس السادس أقاليم الأندلس إلى أن بلغ جبل طارق ثم احتل طليطلة عام ١٠٨٥ م ، فبادر ملوك الطوائف بتقديم فروض التهنئة إليه ! وأسبغوا عليه أو قبلوا أن يسبغ على نفسه لقب « ملك المسيحيين والمسلمين » !!

وما نشك فى أن هذا الفتور الذى أصاب نفسية العرب يرجع — فيما يرجع إليه من أسباب — إلى كثرة عناصر المولدين والهجناء فى أوساطهم ، منذ درجوا على خطة التزوج من الأسبانيات أو التسرى بهن . ولقد كانت هذه الخطة ظاهرة النفع فى عصور الدولة الأولى ، بما أجرت فى عروق العرب من دماء جديدة ، وبما نشأت من جيل متميز فى مواهبه جامع لمحاسن العنصرين فى أخلاقه وتفكيره وجميع مقوماته . ولكن استحال كل هذا إلى مضرات بالغة فى العصور المتأخرة ، إذ تقلصت روح العصبية التى اشتدت حاجة العرب إليها حين كانت جحافل الأسبانيين تزحزحهم عن بلادهم حصناً بعد حصن ، وفشت روح الاستهانة بوازع الدين ، ولم يعد ثمة أثر لطموح المسلمين الأوائل ، وشدة تحمسهم لرفع لواء عقيدتهم ، بل حلت الأثرة والأطماع الشخصية محل كل هذا ، واستخفت أقيال العرب وشعوبها لسيطرة ملوك الأسبان الذين هيمنوا بقوة نفوذهم على شئون شبه الجزيرة من أطرافها .

ويكفى أن نذكر أن أبا عبد الله محمداً آخر ملوك بنى الأحمر

(١) ثار على الحكم بن هشام عماه : سليمان وعبدالله ابنا عبد الرحمن الداخل وسافر عبد الله إلى مقر شارلمان يستنجده ، فأمد الثائرين بجيش يقوده ابنه لويس حاكم أكوتين ؛ ولكن انتصر الحكم على الجميع ، فاسترد من الأفرنج ما احتلوه من المواقع ، وقتل سليمان فى إحدى المعارك ، وقبل الصلح الذى عرضه عبد الله ، وأجرى عليه راتباً يقتنيه . وقد جرت كل هذه الحوادث بين عامى ٧٩٢ م ، ٨٠٢ م .